العدل والانتقام

لكاتب انجليزي مشهور ترجمة
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

لقد علمت ذلك السر العظيم من شفتي الشقي الصريع وهو على فراش موته، فلو أنني أذعته، وهو ما يسوغه العدل والشرف، لضاعفت هذه الاذاعة عبء الكرب والبلاء على العشة الذين هم أحب خلق الله إليّ وأعزهم على نفسي، والذين حسبهم ما هم فيه من هم وغم. فهل كان يليق بي أن أجلب الخزي والعار والفضيحة والارتباك على جميع أولئك الذين كانت تربطني بهم أواصر الحب والوداد، ولهم في عنق أطواق وأرباق، لكثرة ما أولوني من منن وآلاء؟

لقد تدبرت الأمر وعرضته على ضميري أثناء كان الشقي الصريع يؤدي اعترافه ساعة النزع، فرأيت الطمع والاغراء ومعهما العدل نفسه في صف، ولكنني رأيت الحب والأمانة وعرفان الجميل في صف آخر. فكانت هذه أغلب على قلبي وأحوز للبي. ولما انجلى غبار هذه الموقعة العنيفة عن فؤادي توهج ضميري بشعاع مؤنس من الفرح والسعادة، وبكيت سروراً إذ جعلت أحمد الله الذي وفقني إلى اختيار تلك الخطة. لقد قتل ولكنه كان من قبل قاتلاً.

كنت أعلم أن هذا الحي من أحياء لندن، مأهولا بالأعيان وذوي المكانة العالية، وأن الكثرة الغالبة من ساكني قصوره السعيدة ومنازله الفاخرة ذات الحدائق الناضرة والبساتين المشرقة، ويظهرون أمام المجتمع في أبهى الحلل وأجمل المفاتن، متخذين لزينتهم أغلى الحلى وأرفع المحاسن، ويقيمون الليالي الساهرة والأمسيات الراقصة ويحيون حفلات الشاي والكوكتيل، تتلوها المآدب والولائم فترمقهم الأعين بالاجلال والاكبار، وتؤخذهم الأنفس بين الغبطة والدهشة والحسد والانبهار ... من كان يظن أن هؤلاء السادة وأولئك السيدات ليسوا سوى مجرمين وجناة وآفاقيين متزيين بأزياء الأعيان واللوردات والبارونات. منهن من تؤجر للاتجار بالسموم والمخدرات، ومنهم من يؤجر على القتل بدراهم معدودة. وأظن هذه السيدة التي فقدت زوجها غدراً واغتيالا هي التي سمتها في أحد أركان الحانة تخاطب رجل الأسرار بصوت خافت وأنفاس مختنقة وعينين دامعتين وقلب دامٍ:

«أين زوجي يا بوردرو؟ رد عليّ زوجي! كيف وقفت جوف الليل تنظر إليه وهو يقتل؟ بل كيف أفلت منك الخائن الذي جناها؟ فأراد بوردرو أن يتناول يد السيدة التي تخاطبه، ولكن تلك السيدة المجهولة انثنت عنه ووضعت قناعها ثانية واتكأت على المنضدة. وكان وجهها ممتقعاً شاحباً كما بدا لي من وراء القناع. وأما عيناها وأظنهما كانتا في العادة حلوتين رفيقتين فقد وجهتا إلى بوردرو نظرة تفجع وتوجع، وتأسف وتأفف، لم يطقها بوردرو على جفوته وقسوته وجموده وكنوده وجحوده، فزوى وجهه عن تلك النظرات اللاذعات. وكان على مقربة منا رجل وامرأة يتحادثان فقالت المرأة للرجل:

— نعم لك أن تلقى بي في الهاوية ، أو تدعني أتدهور من حالق إلى الدرك الأسفل من حضيض الحياة بعد أن استغللتني أنت وأصحابك

— لقد أحسنت إليك بقدر ما استطعت إلى ذلك سبيلا ثم جاء دور غيرك . فعليك أن تخضع لأحكام القضاء والقدر ، وتلك الأيام يا ليلى نداولها بين الناس ، فلا تطمعي في أنصبة الناس بعد أن نلت نصيبك

ليلى — سأعمل على فضيحتكم ، وأظهر العالم على طريقة إجرامكم وكيف تأخذوننا نحن الفتيات من السوق فقيرات فتخلعون علينا ألقاب الشرف الكاذبة بين لادى هاجرة لوردها ، وبارونة من بارونها هاربة . ثم ...

فقال لها : إنك تسرفين الثمن الذي تدفعينه نقداً وعداً إذا شئت أن تستمتعي بتلك الخيانة

ثم غرق صوتهما في عباب الضوضاء . وسمعت السيدة المقنعة تعود إلى تعنيف صاحبها الذي كانت تدعوه بوردرو قالت :

— لم تقل لي يا بوردرو الأمين ، يا بوردرو الوفي كيف أفلت منك الخائن الذي جناها ، وأنت بطل بيتنا ومانع حوزته ، وأنت الذي كنت ترى أنك تضحي حياتك في سبيلنا ، وأنت الذي كنت مناط حبنا وثقتنا ..؟

ليلى — أتريد أن تخنقني ، إنك لا تملك ذلك في حانة عامة ، إن هذا المكان حافل بالشرطة السرية ورجال الخفية من كل لون ورتبة ودرجة ، ولعل واحداً أو اثنين أو أكثر يلتقفون الأقوال من أفواهنا . لقد خلعت عليّ العقود والجواهر والخواتم والأقراط ، فحليت بها جيدي وصدري وأنامل ومعاصمي وأنا لا أعلم أنها زائفة إلا بعد أن تخليتم عني واضطررت لرهن بعضها وبيع البعض الآخر ، فإذا بها لا تساوي فلساً . لقد أرغمتني على الاتجار بالمخدرات سنوات عدة بعد أن طليتني ودهنتني حتى صرت كواحدة من نجوم المجتمع اللامعة . فخرج الرجل الذي كانت توجه إليه هذا اللوم بالصمت عن لا ونعم !

وتأملتها بعد أن سمعت اسمها وهو : ليلى[1] وأنعمت النظر في جسمها الذي لا فضول فيه فأسفت على ما أصابها ، ولم أكن أملك لها خيراً ولا شراً

وبعد أن طال صمت الرجل عقيب تهديده انفجر مرة أخرى وقال لها : عهدي بك رزينة يا ليلى كأختك فيلبس[2] ولكنك الليلة تعملين بالمثل السائر : « من راقه بدنه ، كشف عن محاسنه ، ومن أعجبته رنات صوته رفع عقيرته » وقد اخترت لرفع عقيرتك مكاناً عاماً ، وهو فخ لأمثالي وأمثالك ، ومصيدة ...

وفي تلك اللحظة فتح باب الحانة وظهر فيه سواد مستر ميكائيل آرلين المؤلف الشهير ، فخفت أن يتعرف عليّ فيهتك ستار التخفي الذي كنت متزوياً وراءه . فحولت وجهي ناحية أخرى وإن كنت واثقاً من تجهيل معارفي في الزي الذي كنت به على ألصق الناس بي . ولحسن حظي رأيت مستر ميكائيل آرلين قد اتجه إلى طائفة من الشباب اللاهين كانت تجمعهم تلك الحانة للعبث واللهو والمجون . وكان ذهن هذا المؤلف سريع الالتفات إلى معاني

(١) نبتة زهرة بيضاء عبقة
(٢) اسم الثرى بمعنى غصن

المرأة . وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء ولا سيما بعد أن نشر قصة « حتى الدودة تستطيع أن تسعى لرزقها » فقد آلمت عواطف صديقاته من بنات إسرائيل ... حتى الدودة تستطيع أن تسعى .

لقد كانت قصة بشعة . إنها تدور حول قصر فاخر تقطنه أسرة إسرائيلية غنية ، فدعى إليه مرات فنشيه زائراً وراقصاً ومقامراً ومغازلاً ، فاتضح له أمر عجيب وهو أن أهل القصر يعرضون شرائط صور متحركة فيها مناظر لا توصف ، وقد يتلو العرض نوع من الأرجيات الأغريقية والرومانية ، وقد أثرى صاحب الدار وكان اسمه ليفيكو فصار لورلفيكار أوف جيتار بفضل من سبقوه إلى مراتب المجد أمثال سيمون ميكلنبرج وأولمان مندلبرج وولف ساندولباوم ونامان كيرزون هاندلسون وجوبلم مايزنشتاين

فلم يشغل مرأى المؤلف بالى أكثر من لحظة ، ثم تغلب صوت المرأة المقنعة على صوت من عداها وهى تقول لبوردرو :

— لماذا دخلت بيني وبين زوجي ؟ إنك لم تهدنا سوى الحزن والكمد والندم . لقد مكنت منه عدوه حتى قتله .. الندم الأليم جزاء ودنا ورحمتنا . ألم تك طفلاً يتيما أول ما رأيتك ورآك هو الذى كان غاية فى البر والنبل وحسن النية . وقد كان من رأيه إرسالك إلى جهة أخري ولكني سألته أن يبقيك حماقة مني وسفها ، وادعيت أنك تحبنا وصدقناك

فقطع بوردرو صمته بكلمة واحدة فقال :

— لقد كنت صغيراً لا أعي شيئاً ولا أميز الخير من الشر ، ولا أفرق بين الجرة والنمرة .

فقالت السيدة :

بالرغم من صغر سنك إذ ذاك ومن ضعفك وانفرادك فلقد كنت توجست شراً فى استيقائك وبلاء . ولقد قرأت أسارير وجهك ونظرت فى أعماق عينيك فرأيت فيها شواهد النكر ودلائل السوء ، وقد وقع المحذور والمكروه وكنت عليمة بوقوعه .

فقال بوردرو : فَلِمَ لم تدفعي عنه مادمت عليمة بوقوع المكروه كما تزعمين ؟

فقالت : ولِمَ لم تمت أنت ، إذ أصابك الجدرى وكنت أعودك بنفسي وأنت فى هذيان حُمّاك لا تعرفني حتى جعلت تناديني وأنا بجانبك . فكل ما أصابني منذ ذلك الوقت هو جزاء العدالة ، أصاب قلبي الخبيث ، قلبي الغيور الخبيث . ويلي ثم ويلي ، لقد لقيت العقوبة ، لقيت أصرم العقوبة ، فهاك زوجي يتخبط فى دمائه ، قد قتل وأنت بجانبه ولكنك لا تريد أن تدل على قاتله .

فى هذه اللحظة الرهيبة نظرت فلم أجد لِبِلى ولا صاحبها أو خانقها الذى كان يتوعدها بالقتل إن هى وشت به وجماعته وعصابته ، وكان الشرطيان بيل شاندلر وسيابك موليجان أحدهما يختال فى ثوبه الرسمى ، والآخر فى زى أهل الفراغ والجدة ، وهما يراقبان « الطيور الجارحة » من القتلة وأهل السطو الخفي والمتجرين بالمخدرات . دق ناقوس الرقص إيذاناً بنهاية اللف والدوران والجاز بند فى الدور الأول . وبهدهدة عادت الموسيقى إلى التوقيع وامتلأت الحلقة المستديرة بالراقصين وبدأ تأنجو من نوع جديد وبدأ كذلك اللمس والهمس والغمز واللمز ووزن الخطى على الأنغام

وفجأة تقدم خادم إلى بيل شاندلر الشرطى الرسمى وهمس في أذنه خبراً هاما فذهب الشرطى إلى خزانة المسرة (كشك التليفون) ثم عاد منه مسرعا وخرج

إلى الطريق . فسأله صاحب الحانة مستر ماكميردو ، أشهر « بوص » فى ماربل آرش قائلا :

— حادث مهم ياحضرة الكونستابل ؟

— أى نعم ، فقد قتلت الفتاة ليلى أوميجان هايل وهى الآن جثة هامدة على إفريز الشارع ، وقد طعنت فى قلبها بخنجر منذ هنيهة كأن قاتلها كان ينتظر خروجها من الباب .

وكان المؤلف ميكائيل آرلين يصغى إلى كل كلمة تدور فى الحديث بين صاحب الحانة وصاحب الشرطة ، يكاد يرشف الألفاظ حرفاً حرفاً ، ويقتبق المعانى خمراً صرفاً ، وحتى لقراء وهو يستمع إلى حديثهما عن المرأة القتيل ، واليد الخفية التى طعنت ، والقلب الصخرى الذى قسا ، والفكر الخبيث الذى دبر مصرع المرأة ، كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة ما يسمع ، وأنه يشهد حادثة لا يصغى إلى حديث . ولا ريب فى أنه كان يضمر وضع قصة طريفة يجمع لها الشاهد ويحشد لها الأقاويل كالنحلة التى تجنى من كل زهرة قطرة ، ثم يزين له الخيال ما يزين فيضيف من وهمه إلى ما سمع مالم يسمع . وكان يستزيد مما يسمع وهو مصغ مأخوذ فيحمل صاحب الحانة والشرطى على الاطناب والاسترسال ، حتى ينفض جملة ما فى نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال

ولكن الشرطى كان عجولاً . بعد أن أنهى خبر الفاجعة إلى المركز العام لم تبرأ ذمته ، ولن تبرأ حتى يجمع الأدلة ويدونها فى كناشته . كذلك المؤلف ميكائيل آرلن فقد أخذ يدون ما سمع فى مفكرته ...

وإنه لكذلك منهمك فى كتابة ما وصل إلى سمعه وذهنه من الأسماء والوقائع ، إذا بمستر دارك نايط أوجفاردر ، ذلك المحقق الخطير الذى يربض فى « فيلا سافوار تروث » بأعلى قمة فى مقاطعة نورفولك ولا يرد عاصمة الديار إلا نادراً . ولا يكون وروده إلا مؤذناً بأمر من أهم الأمور فى عالم الجنايات الخفية ، عالم الظلام والجريمة ، وقد استفاضت شهرته فى عواصم أوربا وأمريكا الشمالية حتى كسفت شمسه كواكب الشهرة العالمية التى عرف بها أرسين لوبان وراملز وموريس هيوبت ... فلم يكن يضارعه أو يفوقه قليلاً سوى أستاذه ومرشده ومعلمه الأول شيرلوك هولمز ، ولكن هولمز قد قضى نحبه قبل موت صاحبه بأعوام وقد خلا الجو لدارك نايط أوجفاردر فلا مزاحم ولا مبارز ، وقد ساعدته طوالع الحظ السعيد فأظهر حذقاً ومهارة تكاد تكون من المعجزات ، لا من نبوغ الفن فى كشف الجرائم

فعقدت النواصى على الاعجاب بدارك نايط وصار بطل الساعة ، وخصم اسكوتلاند يارد الألد ، لأن دأبه أن ينقض مايبرمونه وينفى مايثبتونه ، ويكذب ما يقطعون بصحته ولا يبالى ، لأنه لا يلبث أن يقيم الأدلة الحاسمة على صدق نظره وصواب رأيه . ومن ذلك لم تتوانى دهشة ولم يأخذنى عجب إذ رأيت هذه السيدة المقنعة تلجأ إلى دارك نايط فتعهد إليه بقضيتها ليكشف بقوة ذكائه الخارق أسرارها الغامضة ، فيرشدها إلى الجانى الذى تحوم حوله شبهاتها ، ولا تستطيع أن تقيم عليه الدليل

* * *

تبدأ حوادث هذه الجريمة فى بلدة نيدلهام من

مقاطعة يوركشير حيث توطنت أسرة كبيرة العدد من نيف وثلاثين عاماً ، وانقطع أعضاء تلك الأسرة إلى الزرع والضرع والحرث والغرس والرى والسقيا والجمع والحصد ، والاتجار فى الحبوب والأنعام والأصواف ، وتربية الدواجن ، وترويض الجياد لكسب قصب السبق فى مضمار داربى القريب من موطنهم . وبالجملة كانوا أسرة لاتعرف اللهو واللعب ، ولا تضيع الأوقات فى غير ما يعود على أفرادها بالخير والمنفعة ، حتى أصبحوا مثالاً يحتذى وقدوة تتبع فى الجد والاجتهاد والحرص على المال والحذق فى تكوين الثروة . وكان أرجوس كوبلاند براكنبرى أظهر أفرادها مشهوراً بالشدة ، فكثر عدد أعدائه الذين يضمرون له السوء ويخفون نية الانتقام لثارات لا يعلمها إلا ذووها ممن ربوها فى صدورهم ونموها فى أفئدتهم . ومن العجب العاجب أنه لم يسمع قط يتلفظ بكلمة خشنة ، ولكنه كان لا يتبذل مع أتباعه ، وكان يتلطف فى معاملة الأمة السوداء كما يتلطف فى معاملة الأميرة العصماء ، ولم يكن يخطر ببال أحدأن يتجرأ عليه تجرؤاً منكراً . وكان أرجوس كوبلاند براكنبرى يضطر أشد الخلق صلفاً وكبراً إلى الكف عن غلوائه بما يصوب إليه من قوارص النهكم ، فقد كان له فى ذلك مذهب يجعل الناس منه على أشد الخيفة والحذر . ومما قيل عنه إنه كان يحب الترؤس على كل مجلس يضمه

وفى مساء يوم من الأيام سمع أهل البلدة التى كان يقيم فيها ذلك الرجل وهى نيد لهام بمقاطعة يوركشير طلقات نارية تترى ، فلما زال الجمود الذي يتلو وقوع الكارثة ، وقضى على الدهشة التى تعقب كبار الحوادث هرع الناس إلى مصدرها ومرجع صداها فاذا بهذا الزعيم العائلى ، ورئيس الأسرة الجادة المجدة معفراً بتراب الأرض مضرجاً بدمائه ، مكفناً بثيابه التى كان يختال فيها منذ برهة . ولم يعثروا فى مكان القتل على أثر للفاعل الشرير الذى انتهز بلا ريب خلو المكان ، فصوب فوهة طبنجته إلى صدر الرجل ضامناً القضاء عليه حتى لايشى به ولا يبوح باسمه

واتصل الخبر برجال الشرطة وأعوان سكوتلاند يارد ، وكان من ضجتهم ما يكون فى مثل تلك الحال فانتقلوا بقضهم وقضيضهم وأدوات بحثهم وآلات فحصهم ، وبثوا عيونهم وأرصادهم ووزعوا آذانهم توزيع الماء فى الفيضان ، ولكنهم وا أسفا عادوا بالخيبة وباؤوا بالحسرة ولم يوفقوا إلى إثبات التهمة على أحد . غير أن واحداً من أقوى أعداء الرجل حامت حوله الشبهات وكان صديقاً حميما لبوردرو الذى ربّاه القتيل وأنفق عليه وتعهده منذ الصبا إلى تمام الرجولة وجعله موضع ثقته وموطن أمانته . ولكن بوردرو الذى لاتشك أسرة الصريع فى علمه بشخصية القاتل وقدرته على إقامة الأدلة على جنايته ، غادر البلدة ولم يعد إليها وفضل أن يعيش على هامش الحياة فى لندن ، على أن يقضى بقية أيامه فى مسقط رأسه ومستقر أصدقائه ومواليه ومن بينهم تلك السيدة ، وهي لاتزال دائبة فى البحث والتنقيب ، وقدضرب لها دارك نايط أوبجاردر موعداً فى هذه الحانة ليتمكن من رؤية الرجل الذى تظن أنه يعرف قاتل زوجها . فلما دخل من الباب ووقع بصره على الرجل والمرأة التى تحاول تليين قلبه ليعترف لها بما يعلم تقديراً لجميلها وجميل زوجها فى معاملته تجاهلهما ثم خرج وعاد متزيياً بزى سكير

لا يفيق وإن يكن من أهل الأناقة ، وأومأ إلى السيدة أن تتنحى فتنحت ، وجلس إلى جانب بوردرو الذى لم يعرفه

وتبادلا النظرات فالحديث فالمسامرة . وبدأ دارك نايط يروى لبوردرو بعض حوادث من مبتدعات الخيال يوهمه أنها من مغامراته وأنه كان بطلها إلى أن سأل لعاب بوردرو ، فروى له الحادثة الآتية : لو أسرعت الخطى منذ هنيهة لاصطدمت هنا بامرأة تتهمنى بالقتل وأنا منه برىء ، وتتذلل إلىّ وتستعطفنى وتمنفنى وتذكرنى بالماضى السحيق . وقد قتل زوجها ولم يكن إلا قاتلا رجلا آخر استولى على ثروته وكان من الحذق بحيث لم يكشف عن جريمته أحد ، ومضى على هذه الجريمة أعوام وأشهر وأيام ، وظن القاتل وهو زوج تلك المرأة الملحة أن ستار النسيان قد أسدل على الجريمة والمجرم ... ولكن شقيق القتيل كان لا يزال يذكرها معاً ، وكان يعد الأيام والساعات ويحصى الدقائق والثوانى ويتحفز للانتقام ممن اعتقده قاتل أخيه ، وكان يمهله ولا يهمله ، كأنه القضاء المبرم ، وكأن القضاء المبرم أراد أن ينزل به فى أسعد أوقات حياته ، فاتصل به وصادقه وصافاه ، حتى أمن القاتل جانبه ، ونصح إليه بالزواج فتزوج وشاركه أفراحه ، وصحبه إلى باب غرفة الزفاف كأعز صديق يقضى مع صديقه آخر أوقات العزوبة ليشاركه مسراته

ولما سنحت له فرصة القضاء عليه وهو على أتم ما يكون صحة ومالا وجاها وأمناً على نفسه وفرحاً بزوجته وولده ، استل روحه من بين جنبيه

فضحك دارك نايط وهو يتظاهر بالسكر وقال : وما دخلك أنت أيها الغبي فى هذا الأمر ؟ لا يد لك فيما تبت يداك . لا تحدثنى عن نفسك إلا حديثا فيه قتل كنت أنت بطله .

فقال بوردرو : إنك لم تفهم شيئاً . ألم أقل لك إن الشقيق هو الذى قتل وإننى الذى مهدت سبيل القتل ، باختيار الساعة التى كان فيها القتيل وحيداً والطريق خالياً . وقد كان نصيبى من تلك الحادثة مكافأة قبضتها بعد مرور عام على حفظها فى سجل الشرطة ونسبتها مؤقتاً إلى قاتل مجهول فأبرقت أسرة دارك نايط ولمعت عيناه . وقال له :

وما عليك إذا كنت تصيب مكافأة جديدة لا يعرف سبيلها سواى ؟

فحملق بوردرو فى محدثه ، فاستمر الرجل :

— أى نعم ، أكتب تقريراً مطولا يبعث به أحد أصدقائنا إلى رجال الشرطة فينفحونك منحة لا بأس بها ، ولا غبار عليك ولا حرج . فضحك بوردرو حتى بانت نواجذه . . وقال : لقد كتبت ورقة كهذه واجتهدت أن أدفع عن نفسى المسئولية ما أمكن ذلك . وها كها :

فضحك دارك نايط وقال : وأنا أعددت لك المكافأة وها كها . وأخرج من جيبه « جامعة » الحديد ، وقبل أن يستفيق بوردرو من دهشته ، ليدرك ما حل به كانت يداه مقيدتين فى الأغلال وكان رهن رجال الشرطة الذين كانوا يحيطون به من كل جانب .

وكان المؤلف ميكائيل آرلين يرهف السمع ويصوب البصر ليقف على هذا الحادث الجديد بالتفصيل ، فما كان يصبر على أن تفوته طرائف الحانات فى هذه الليلة الحافلة بالحوادث

محمد لطفى جمعه